البحث الثاني

الصابئة المندائيون والغنوصية

الغنوصية تعني المعرفة، والمندائية تعني أيضًا المعرفة باللغة العربية، أو العرفان.

لقد ظهرت كلمة عرفان عند المتصوفة لتدل عندهم على نوع أسمى من المعرفة يلقى في القلب على صورة كشف أو إلهام، وكان المتصوفة يميزون بين معرفة تكتسب بالحس أو بالعقل أو بهما معًا وبين معرفة تحصل بالكشف أو العيان، وقد صنفت المعرفة إلى ثلاث:

١- معرفة التوحيد وهي خاصة بعامة المؤمنين.

٢- معرفة الحجة والبيان وتلك خاصة بالحكماء والعلماء المخلصين.

٣- معرفة صفات الوحدانية وتلك خاصة بأهل ولاية الله المخلصين الذين يشاهدون الله بقلوبهم حتى يظهر الحق لهم ما لم يظهره لأحد من العالمين.

يقول القشيري موضحًا هذه التمييز بين البرهان والعرفان والبيان:

(فعلم اليقين ما كان بشرط البرهان، وعين اليقين ما كان بحكم البيان، وحق اليقين ما كان بحكم العيان، فعلم اليقين لأرباب العقول وعين اليقين لأصحاب العلوم وحق اليقين لأصحاب المعارف، ويبلغ التمييز بين البرهان والغنوصية ذروته داخل الثقافة العربية لدى المتصوفة الإشراقين كالسهروردي الذي يفصل فصلاً واضحًا بين الحكمة القائمة على الكشف والاستدلال والنظر والبرهان والحكمة الإشراقية القائمة على الكشف والإشراق، ويجعل على رأس الأولى أرسطو وعلى رأس الثانية أفلاطون... لقد انتشرت الفلسفة الهرمسية التي استخدمها الفلاسفة اللاحقون وكانت فلسفة هرمس سلة العصر كله، وأن الغنوصية نظام معرفي ساد في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد إلى منتصف القرن السابع بعد الميلاد، ومع ظهور الإسلام وانتشار الفتوحات.

والغنوصية كانت تعني المعرفة الدينية حصرًا ويعتبر روادها أنها أسمى وأرقى من معرفة المؤمنين وأرقى من معرفة علماء الدين الذين يعتمدون النظر العقلي. إذن الغنوصية هي التيارات الدينية التي تقوم على تعميق الحياة الروحية التي تنتج القدرة على استخدام الإرادة في الفكر الغنوصي بدلاً من العقل، وهنا الاختلاف واضح بين الغنوصية والمندائية التي تركز على العقل في معرفة الخالق إضافة إلى الإرادة الروحية المكملة للحالة العقلانية.

وهناك ترابط بين الغنوصية والهرمسية نسبة إلى النبي هرمس (إدريس) أو دنانوخت عند المندائيين، وقد نسب إلى النبي إدريس الذي ورد اسمه في القرآن الكريم أنه من الأنبياء المرسلين ، وذكر أنه أول من علم الكتابة والصنعة والطب والفلك، وله فلسفة دينية وتذكر المصادر المندائية أنه أحد أنبيائهم وقد أنزلت عليه عدد من صحف الكنزا ربا، ولهذا النبي تعاليم ورسائل ونظريات كونية منها (في قمة الكون وفوق سماء النجوم الثانية يقيم إله متعال لا يمكن وصفه، منزه لا تدركه العقول ولا الأبصار، ملك النور السامي، وإزاءه توجد المادة غير المتعينة وهي مبدأ الفوضى والشر وميدان النجاسة والقذارة، أما العالم السماوي وكل ما يشتمل عليه وكذلك الإنسان فقد تولى صنعه الإله الصانع القابل للمعرفة والإدراك وبأمر من الإله المتعالي)... وباختصار شديد إن الله ملك النور السامي خلق النفوس وخلق الملائكة الأثريين، وكلف غيره بصناعة كل الأمور الأخرى والتي قد ينالها العوز والنقصان.

حتى الإنسان مكون من جسم مادي غير طاهر لأنه يتوسخ ويمرض ويتوجع ويموت ومن نفس (نشماثا) طاهرة نقية لا تشوبها شائبة هي هبة من الحي العظيم، إن القلة من الأصفياء التقاة الحكماء وحدهم تصعد نفوسهم بعد الممات إلى عالم الأنوار ليحيوا حياة ثانية أبدية، أما النفوس التي ارتكبت أرواحها أعمالاً شريرة فمصيرها جهنم.

إذن الهرمسية أو الغنوصية تؤمن بوجود إلهين ؛ إله متعال سامي لا يمكن وصفه ولا تدركه العقول ولا الأبصار ، كما ذكرنا وهو إله سلبي لا يهتم بشؤون الكون لأن الكون بنظره ناقص أي فيه عوز ونقصان ، وهو منزه لا علاقة له بأي عوز أو نقصان لذلك لا يمكن إدراكه بالعقل والحواس ، وإله آخر هو الإله الصانع ، هو الذي صنع العالم ولذلك فهو يتجلى فيه يمكن إدراكه بتأمل الكون ونظامه وكل شيء يتم بأمر من الإله المتعالي السامي الذي لا يمكن إدراكه بالعقل والحواس كما أسلفنا وهو موجود في كل مكان ، وإدراكه ومعرفته تتم عن طريق النفس وليس العقل كما يؤكد الغنوصيون ، وأن النفس أصلها عالم الأنوار وتعود إليه بعد تحررها من الجسد وهذا الرأي فيما يخص النفس يؤكده كذلك المندائيون.

وتقول الفلسفة الغنوصية إن النفوس ما هي إلا كائنات نزلت من العالم السماوي (عالم الأنوار) ارتكبت ذنبًا فكان عقابها هبوطها إلى العالم الأرضي وسجنها في الأجساد وعقابًا لها ، والسؤال كيف يمكن تخليص النفس من جهنم؟ فالغنوصية تقول بواسطة المعرفة وبذل جهود مخلصة لتطهير النفس ونقائها وتخليصها من المادة وعروجها مرة أخرى إلى عالم الأنوار والفناء؟ في الله، وتقول أيضًا قد تصدأ نفس الإنسان خلال فترة سجنها بالجسد حتى تفقد طهارتها ، ولكن يمكن صقلها ونقاءها ، ومن هنا يتوضح الرابط العضوي بين الكيمياء والتصوف في الأفكار الهرمسية.

وهناك من يقول لا يمكن الحصول على المعرفة إلا من عند الله أو نبي مرسل فبمعرفة الإنسان بنفسه يعرف الله وبمعرفة الله يطهر نفسه من الذنوب والمعصيات التي يحاسب عليها ، وبهذا نلاحظ أن معظم الأديان تملك عوامل مشتركة مع الغنوصية قد تقترب كثيرًا أو تبتعد قليلاً، ورغم أن نبي الله إدريس هو أحد أنبياء الصابئة المندائيين ونزلت عليه بعض صحف الكنزا ربا كما نزلت من قبله على آدم وشيت وسام بن نوح ومن بعده يهيا يهانه ، ولكن نجد في تعاليمه تقارب كبير من الغنوصية بوجود الله المتعالي ملك النور السامي

المنزه ووجود الله الصانع الذي تدركه الحواس والعقول التي لم تكن ضمن تعاليم النبي يحيى بن زكريا التي كان يدرسها في أمسيات الليالي إلى طلابه ومريديه والمؤمنين به.

الفكر المندائي يؤمن بوجود الله العلي العظيم الذي خلق كل شيء وبأمره كان كل شيء خلق الملائكة الأثريين وكلف بعضهم بل أمرهم بإجراء بعض الإجراءات نفذوها حسب أوامره وتوجيهاته ولم يخالفوا له أمرًا فهم مسبِّحون ساجدون ممجدون للحي العظيم، وأمر بخلق الإنسان من جسد ونفس وروح، فالجسد جبل من طين وإلى الطين يعود والنفس منحها الحي العظيم للإنسان من عالم الأنوار، وله تعود لأنها لا تموت، والروح تحاسب في محطات الحساب (المطراثي) عن أعمالها من المهد إلى اللحد، بعدها ترتقي وتتحد مع النفس وتصعد إلى الدموثا (النظير) الذي أخذت منه.

(كل ما يصنع بالأيدي يفسد وكل حي يموت، إن عكازتكم يوم الحساب أعمالكم التي عليها تتوكأون، فانظروا إلى ماذا تستندون)... كنزا ربا.

إن الغنوصية والهرمسية (الإدريسة) والمندائية فلسفات وفكر يحتاج إلى فهمه واستيعابه إلى معرفة واسعة وتركيز عالي وفهم عميق، وإطلاع واسع على الغنوصية الخالصة وفهمها وفهم فلسفتها ودراسة المذاهب الصوفية وأساس تكونها.

إذن المندائية تركز على طهارة النفس ونقائها وارتقائها إلى عالم الأنوار على الأعمال الحسنة، وليس هناك أكسير يقوم بعملية التطهير والتحويل إطلاقًا، إذ ورد في الفكر الهرمسي أنه بالمعرفة يمكن الخلاص وهذه المعرفة لا تعني (العلم) بل بذل مجهود متواصل القصد منه التطهير والخلاص من المادة والاندماج من جديد في العالم الإلهي، لا بل الفناء في الله، أما في مجال العلوم السرية الهرمسية وفي مقدمتها الكيمياء، فبمعرفة كيفية التجاذب والتنافر في المعادن يمكن تحويل الخسيس منها إلى ذهب (معدن نبيل)، بواسطة الصنعة

والتدبير ، والمبدأ المعرفي الذي يحكم هذا النوع من الكيمياء يتلخص بنص هرمسي يقول (ما من طبيعة إلا وهي مجذوبة بطبيعة أخرى، وما من طبيعة إلا وهي مقهورة لطبيعة أخرى، وما من طبيعة إلا وهي تهيمن على طبيعة أخرى، إذن فللحصول على معدن راق لابد من تحريره من الطبائع الدنيا ، طبائع المعادن الخسيسة التي تلامسه وتستحوذ عليه ، ويكون ذلك باستعمال طبيعة أخرى أقوى تسمى الأكسير الذي يقوم بعملية التطهير والتحويل، وهكذا يمكن صقل النفوس وجعلها نقية طاهرة.